كلمة العدد

أقنعة بورخيس

ناظم مهنا
رئيس التحرير

عُرِفَ الشاعر والقاص والفيلسوف الأدبي الكوزموبوليتاني «بورخيس» بالعِداء الشديد لكل ما هو مألوف، وبتحديه لكلِّ التصورات والتعريفات المتعارف عليها، وبدأبه المدهش في جعل ما هو عادي يبدو في منتهى الغرابة، مأخوذاً بمثالية الأسقف «بيركلي» الذي يرى أن لا شيء خارج ذواتنا، وما نراه وما هو موجود في العالم ليس هو الحقيقة، بل هو من تأليف مداركنا الحسية الخادعة. كان «بورخيس» مفتوناً بهذا التحدي لكلِّ منطق مألوف، رغم نزوعه الظاهر للنظام المضاد لليوتوبيا الذي ينشئه الخيال بعناية كما في قصته المعقدة: «تلون، أكبر، أوربيس تريتوس» حيث لا يوجد مكان، وينتفي فيها عالم العلة والمعلول، وتحلّ محله سلسلة من الأفعال الحرَّة أو التداعي الحر، والمعنيون بشأن الميتافيزيقا في عالم تلون، لا يسعون وراء الحقيقة، بل ينشدون نوعاً من الإبهار. هذه المفارقات التهكمية والساخرة عند «بورخيس» التي يمكن أن نطلق عليها «قناع المثالية» أو «قبعة بيركلي»، يدرك «بورخيس» خراقتها وابتعادها عن أي منطق ولكنه يتمسك بها إلى حد الانبهار لأنها تتحدى المنطق المألوف، ويبرر «بورخيس» هذا الانبهار بوصفه تمريناً نفسياً.

في كتاب: «أمسية عادية في بوينس آيرس» للشاعر الأمريكي «ويليس بارنستون» ترجمة «د.عابد إسماعيل». الكثير من الثرثرة والأخبار الهامة عن «بورخيس»، يجعلك كمن يصطاد اللؤلؤ من عمق المحيطات. رافق «بارنستون» «بورخيس» عقدين من الزمن، السنوات العشرين الأخيرة من حياته تقريباً، وهي، قطعاً، فترة غير كافية لتفكيك كلِّ أقنعة «بورخيس»، لكنها تصور لنا حياكة قناع واحد هو الحياة اليومية لهذا الأعمى المسكون بعدة شخصيات؛ فلاسفة وآلهة ووحوش أزلية وخرافية... والحقيقة يقدم لنا «بارنستون» وجهاً غير مألوف وغير متوقع لـ«بورخيس» في مدينته الجحيمية، فهذا الأعمى الذي كان يرى أكثر مما يرى المبصرون، يقول عن نفسه شعراً: «أنا بيضة طائر ترقد في عشها، في بوينس آيرس، وهي لم تفقس بعد، وآمل أن تبقى على هذا الحال».

يقول «بارنستون»: الحديث مع «بورخيس» مبارزة من الدفء والحميمية مملوءة بالروعة، سواء أكان «بورخيس» مكتئباً أَمْ فرحاً، ضاحكاً أَمْ متعباً، يتحدث في الأدب سواء أكان في مطعم أَمْ في طائرة. روى عنه «فارغاس يوسا» حين زاره في بيته، أن «بورخيس» قد استاء من تعليق «يوسا» على رطوبة سقف المنزل، واعتبر هذا الحديث ضرباً من التفاهة، ثم اقتاده «يوسا» إلى المبولة، سأل وهو يتبول: هل تعتقد أن الكاثوليك كانوا على حق؟

كنت قد قرأت كل ما ترجم إلى العربية لـ«بورخيس» وعنه، وعلى كثرة ما يذكر في كتاباته من أسماء عربية، لم أعثر على أي إشارة تفيد بأن «بورخيس» قد تعرف على شبيهه في العمى والعبقرية «أبي العلاء المعري»، واستغربت هذا التجاهل، واعتقدت أنه مقصود إلا أنني عثرت على إشارة غير صريحة تشير إلى «أبي العلاء»، يقول «بورخيس»:

«آه أيتها الأيام المكرسة
لمهمة عقيمة في نسيان حياة
شاعر ثانوي من النصف الجنوبي للأرض
ممن منحته النجوم والقدر
جسداً لم يترك ابناً خلفه
وعمى هو بمثابة سجن وشبه ظل»

لا يعترف «بورخيس» بحقيقة الزمن هو عنده ذو طبيعة مخادعة، منطلقاً من ذاتية عرفانية، متماهياً مع «بيركلي وهيوم وشوبنهاور»، ومع البوذيين، إذ عندهم الأبدية تعني راهنية الزمن بكلّيّته، وبدحضه التواتر الآني للزمن. يقول: «نحن دائماً نخترع الماضي، لأن نصفنا اختراع والنصف الآخر ذاكرة».

يقترح «بارنستون» بداية جذابة للحديث عن «بورخيس»، يقول: «دعونا نبدأ بالنميمة على بورخيس الكاتب» «بارنستون» يروي معايشته لـ«بورخيس»، أليس السرد الروائي بشكل أو بآخر نوعاً من النميمة والتلصص على الشخصيات؟

إذا كانت «بوينس آيرس» هي الجحيم، فالمكتبة هي الفردوس. إذن، فقد أخطأ «دانتي» في تحديد مكان الجحيم وبواباته، وبكتابة تشبه السرد الروائي لشاعر يروي عن شاعر، يعدّه كلَّ حياته، يمضي «بارنستون» بعفوية وشفوية تاركاً للذاكرة أن تنطلق على سجيتها. السرد هنا كأنه شريط سينمائي يضع «بورخيس» في عين الكاميرا. أهداه «بارنستون» سكيناً إسلامية معقوفة موضوعة في غمدها، مزينة بحلي عتيقة. يقول «بارنستون»: «كانت السكين بالنسبة لبورخيس ترمز للعديد من اهتماماته: آسيا، الإسلام، وأمريكا اللاتينية، وبوينس آيرس، السكين تعني له الرجولة التي يمكن أن يحملها رجل مطارد، يقطع طريقاً ليعرف كم الساعة، كما في رواية «وليم فوكنر» «نور في آب» يقول لـ«بارنستون»: «هل تعلم، لست بذاك الكاتب على الإطلاق، لا مخيلة، لا أستطيع أن أبتكر شخصيات، ثمة شخصية واحدة هي أنا»، ويحوّل «بارنستون» هذا الحديث الجدي إلى مزاح، إذ يقول لـ«بورخيس»: «عليك أن تخفي سرَّ دونيتك تحت قبعتك. يجيب «بورخيس»: لو كنت أرتدي قبعة لفعلت، وعليَّ أن أرتدي قبعة لكي أخفي صلع رأسي الجزئي».

يصف «بارنستون» علاقة «بورخيس» بالناس والشارع في «بوينس آيرس»: « كان الناس يمرون بنا، ويقفون جانباً بينما كنا نسير ببطء، حتى إنَّ خمسة من رجال الشرطة الذين تجمهروا عند منتصف الرصيف، ترددوا للحظة، اضطربوا وأفسحوا لنا طريقاً عندما اقتربنا منهم، كان رائعاً أن تراهم يَحْنُوْن قاماتهم للكاتب العجوز الذي كان رسمياً معارضاً لقادتهم في الحزب البايروني، في كل دقيقة أو أكثر كان يأتي أحدهم ويصافح يد

بورخيس..» علّق «بورخيس» على ذلك مازحاً: «لقد استأجرت كل هؤلاء المعجبين، وهم ما يفتؤون يدورون خلف المنعطف ويأتون إلي».

في هذا الكتاب تندحر صورة الأرستقراطي الساخط المنعزل والكئيب لتتقدم صورة المماحك الصعلوك الذي يحبُّ المزاح والتهكم والكلمات الداعرة. في كل ما قرأته عن «بورخيس»، بما في ذلك سيرته الذاتية كما رواها هو، كنت أعتقد أنه رجل العزلة، إنسان القبو والأرشيف، بينما ما يقدمه «بارنستون» عكس ذلك؛ رجل يحبُّ الصحبة والزحام وصخب المدن والأحياء الشعبية، وإنّه يُسَرُّ كثيراً حين يهتم به الناس. في المكتبة الوطنية حيث عزله «بايرون»، لعب «بورخيس» دور المتغيب، وكتب قصصاً شهيرة: «اليانصيب في بابل» و«الموت والبوصلة» و«الأطلال الدائرية» وقد أضفى النقّاد بسخاء على شيفرات هذه القصص أهمية عرفانية صوفية، رغم أنها كانت ببساطة تسجيلات لعدد الكتب والرفوف الملاصقة لكتفيه، حسب «بارنستون».

كان النظام البايروني ينظر إلى «بورخيس» على أنه كاتب منشق موال للحلفاء، وكان هو يعتبر «بايرون» نازياً، وفي عام (١٩٤٦م) طرد «بورخيس» من مكتبة «ميغيل كين» البلدية ليرقى إلى منصب أعلى، ويصبح مفتشاً على الأرانب والطيور الداجنة، في محاولة لإنزال الإهانة الكبرى به، فقدم استقالته. عندما سقط «بايرون» في عام (١٩٥٥م) انتهى كابوس «بورخيس»، ولقاء معارضته له عُيّن مديراً للمكتبة الوطنية التي وَجَدَ فيها متاهته.

وبالعودة إلى سرد «بارنستون» وهو يتحدث عن «بورخيس» في الشارع، يقول: «صاحت امرأة: أنت أزلي يا بورخيس. ردَّ هو: شكراً لك، ولكن اعفني من هذه العقوبة الخالدة». سأله أحدهم: ما هو شعورك تجاه جائزة نوبل؟ ردَّ أيضاً بكلمة واحدة: «جشعة».

من آراء «بورخيس» بالأدباء كما يوردها «بارنستون»، عن «إليوت» يقول: «شاعر جيد لكنه ناقد ممل، محترف أكثر من اللزوم. لكن «روبرت فروست» شاعر ممتاز ورائع مثل «براوننغ»، كان مزارعاً مرعباً». يقول «بارنستون»: «حماسة بورخيس لفروست كان يقابلها احتقار لعزرا باوند»، حيث كان يعتقد أن أكاديميته سخيفة وشعره لا يستحق الذكر، يقول: «لدي كلمة واحدة لباوند: احتيال» يؤكد «بارنستون» أنَّ «بورخيس» كان

شحيحاً بشكل خاطئ تجاه بعض المعاصرين، خاصة «لوركا»، و فيلسوف الجماليات الإسباني «أورتيغا أي غاست». أما بالنسبة لـ«بابلو نيودا»، فكانت لديه كلمات مختلفة تماماً؛ كان يمتدح «نيرودا» في أضعف أعماله كطريقة للأخذ منه، أو أنه كان يعطي الشيطان المحترم حقه، مع ذلك، كان واضحاً أنه لا يَكِنّ له المودة. يقول «بورخيس»: «بابلو نيرودا كتب كل هذه القصائد الوجدانية الغزلية السخيفة، في البداية، أسماها «عشرون قصيدة حب وأغنية يأس» ولكن عندما صار شيوعياً صارت قصائده أكثر قوة»، لكنه أنَّب «نيرودا» لأنه لم يقل كلمة واحدة ضد «بايرون» عندما كان «بايرون» يعذب الشيوعيين الأرجنتينيين: «في الوقت الذي كان عليه أن يكتب بأعلى صوته، مشحوناً بالغضب النبيل.. لكنه شاعر متميز جداً، شاعر عظيم في الحقيقة».

يقول «بارنستون»: إن «نيرودا» كان فطناً وحاذقاً، إذ قال عن «بورخيس»: إنه كاتب عظيم ونشكر السماء على ذلك، ولكن أن أتشاجر مع «بورخيس» لمجرد أن كلَّ واحد يريدني أن أتشاجر مع «بورخيس»، هذا ما لن أفعله أبداً، إذا كان يفكر كالديناصور فهذا ليس له علاقة بتفكيري، إنه لا يفهم أي شيء عما يدور في العالم الحديث، وهو يعتقد أنني لا أفهم أيضاً، وبالتالي نحن متفقان.

شعراء «بورخيس» المفضلين: «كفافيس، ستفينس، فروست». يقول «بارنستون»: إنه ساحر الذاكرة الذي لا يمكن السيطرة على طاقاته، وينقل عنه القول: «ثمة قصائد نسيانها أصعب من تذكرها».

وعن علاقة «بورخيس» بالنساء، يستمر «بارنستون» بالنميمة، ويقول: «كان يحب التحدث معي عن نساء عرفهن يوماً أو يعرفهن الآن، كان لديه كثير من الصداقات النسائية، وجميعها أدبية»، نقلاً عن مؤرخ سيرته «أمير رودريغز»: كانت أمه «ليونور أسيفيدوسواريز» الأقرب، خلال القسم الأعظم من حياته، عاش معها أكثر من ثلاثين عاماً حتى وفاتها عن عمر ناهز التاسعة والتسعين، وأوقفت أمه زواجه من معاونته الأدبية «ماريا إيسر مازكويز»، لكنه عاد وتزوجها في عودة لا تصدق عام (١٩٦٧م) بعد أربعين عاماً من علاقة سرية بينهما، طلق زوجته «إليسا» لأنه اكتشف أنها امرأة لا تحلم.

يقول «بارنستون»: «على الرغم من محدودية مخزونه في التعامل مع الجنس الآخر، كان يحبُّ النساء ويحبُّ أن يبقى معهن بشكل دائم. والمدهش حقاً أن هذا الأعمى في الثمانين من عمره كان يُعَلِّقُ صور بعض النساء اللواتي يُحبُّهن على الجدار فوق سريره».

الأهم بالنسبة لـ«بورخيس» المرآة التي هي مصدر الشهوة والوحي، تشوه وتسرد الكلمة، مزيفة ولا نهائية، إنها كلُّ شيء يحدث، ولكن لا شيء معها يمكن تذكره، لا يمكنها التمسك بالزمن وهي محرومة من الذاكرة، إنها مثل الزمن الخارجي نفسه، والمرآة تقرأ من اليمين إلى اليسار. وهاهو الشاعر الأعمى يتلمس المرآة بحثاً عن إشعاعات لنفسه في قصيدة «الأعمى»:

«لا أعرف الوجه الذي يلتفت إلي

عندما أنظر في المرآة، كما لا أعرف ذلك الرجل العجوز الذي يتآمر

في ألف المرآة، صامتاً من غضبه المتعب»

يخبرنا «بارنستون» أيضاً: «كان بورخيس يحب البربري، كان يقيم أهمية ضئيلة للطبقة الوسطى في أي بلد، على الرغم من أن كلمة «بورخيس» تعني البرجوازية، وكان يبدو أنه لا ينتمي معهم إلى الوطن نفسه، كان يحب العالم السفلي لـ«بوينس آيرس»، والضواحي الفقيرة والشرسة الشمالية للأرجنتين والأوروغواي».

يقول «بورخيس»: أعتقد أن لدي ثلاثة كوابيس جوهرية متكررة: المتاهة، الكتابة، المرايا. تواضع «بورخيس» وعمقه تساعدنا في اكتشاف أقنعته المتعددة، وعنده ما من جديد، وكلُّ شيء في عالم الفكر والشعر والنثر هو إعادة اكتشاف.

❁ ❁ ❁